﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ۝٤٢ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُمۡ بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ۝٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾

[القمر: 41 - 46]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِنَ الأمم القديمةِ إلى القريبة

لمّا كان تَكرارُ إنذارِ مَن سَبقَ قد يوهِمُ أنَّ مَن تأخَّرَ عنهم في الزَّمان لم يُنذَرْ، وأنَّ الهلاكَ وقَعَ به لِمُجرَّد تفريطِهِ في الاعتبار بمَن تقدَّمَه، دَفَعَ اللّهُ هذا الوهمَ ببيان أنَّ آلَ فِرعونَ - مع كونِهم مُتأخِّرين عن قوم لوطٍ - قد جاءَهُمُ النُّذُر كذلك، فقال سبحانَه مُقسِمًا: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛ ليعلمَ أنَّ سُنَّةَ اللّه ماضيةٌ في الإنذار قبلَ الأخذ، وأنَّ الهلاكَ لا يَقعُ إلّا بعد قيام الحُجَّةِ[1].

بلاغةُ المُناسبة بين مَطلِع القَصص وختامِها

بالنَّظر إلى عُموم السّياق في سورة القمر نجدُ احتكامًا بلاغيًّا إلى قاعدة (مُطابقة المبدأ للخاتِمة)، وهو ما يدخلُ ضمنَ (مراعاة النَّظير)، ويُعَدُّ من أساليب الإحكام والتَّفنُّن في الأسلوب القرآنيِّ؛ فمُطابقةُ البدءِ بالخَتم تتجلَّى في أنَّ الإغراقَ عذابُ أوَّلِ مُكذِّبٍ (قوم نوح)، والإغراقَ عذابُ آخر مُكذِّبٍ (آل فِرعون)، مع ترَقٍّ في وسيلة النَّجاة؛ فنوحٌ نجا بسفينةٍ صنعَتها يَداهُ بإذن اللّه. وموسى نجا بشَقِّ البحر، فكانَت أرضًا تمخرُها أقدامُهُم لا ألواحٌ ودُسُر. فكان الخَتمُ أدهشَ مِنَ البدء؛ لأنَّ موسى لم يَحتج أن يَصنعَ سفينةً مُنجيةً؛ فكانَت قُدرةُ اللّه هي المُنجية، وقد أحاطَتِ المياهُ بالرَّسولَين، ومَن معهما.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 128.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلزُّبُرِ﴾: أصلُ (زبر) يدُلُّ على قِراءةٍ وكِتابةٍ وما أشبه ذلكَ، فأصل (زَبَر) هنا: يدُلُّ على إحكام الشَّيءِ وتَوثيقِهِ، ويدُلُّ على قِراءَةٍ وكتابَةٍ وما أشبَهَ ذلكَ[1]. يُقالُ: زَبَرْتُ الكِتابَ، إذا كَتَبْتَهُ، ومنهُ الزَّبورُ[2]. وكلُّ كتابٍ غليظِ الكتابة يُقال له: زَبورٌ، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتاب المُنزَّل على داودَ ﷺ. والزُّبُرُ: الكُتُبُ الَّتي كُتِبَ فيها ما أوحيَ إلى الرُّسُلِ[3]. وربَّما قالوا: زَبَرْتَهُ، إذا قرأتَهُ. وقيل: بل الزَّبورُ كلُّ كتابٍ يَصعبُ الوقوفُ عليه مِنَ الكُتبِ الإلهيَّةِ، قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشّعراء: 196][4]. والزُّبُر في الآية جَمعُ زَبورٍ، وهو الكِتابُ، وزبورٌ بمعنى مَزبورٍ؛ أي: بَراءَةٌ كُتِبَتْ في كُتُبِ اللّه تعالى السّالِفَةِ[5].

2) ﴿وَيُوَلُّونَ﴾: أصْلُ (ولي) يدلُّ على قُرْبٍ؛ مِن ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعدَ ولْيٍ؛ أي: قُرْبٍ[6]. والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَوَلَّى) بنفسِه اقتَضَى معنَى الوَلايَةِ، وحُصولِهِ في أقرَبِ المَواضِعِ، وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربِهِ. والتَّوَلّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ[7]. وهو هنا بمعنى: يَجعلونَ غيرَهُم يَلي[8]؛ أي: يَرجعون إلى الأدبارِ هارِبين[9].

3) ﴿ٱلدُّبُرَ﴾: أصل (دبر) يدلُّ على خِلافِ القُبُلِ[10]. والدُّبُرُ مُؤَخَّرُ الشَّيءِ وخَلفُهُ، يُقالُ: دَبَرَ النَّهارُ وأدبَرَ: إذا جاءَ آخِرُهُ. والتَّدبيرُ: أن يَنظُرَ الإنسانُ إلى ما تَصيرُ عاقِبَتُهُ وآخِرُهُ، ويُطلَقُ الدُّبُرُ أيضًا على الظَّهرِ[11]. والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جهةِ الخَلف. يُقال: ولّاهُ دُبُرَهُ: إذا انهَزَم[12]. والدُّبُر في الآية معناه: الظَّهرُ، وهو ما أدْبَرَ؛ أي: كان وراءً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 14/ 162.
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (زبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(7) الرّاغب، المفردات: 27/ 179.
(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 213.
(9) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (دبر).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية: (دبر).
(12) الكفويّ، الكلّيات، ص: 160.

والمقصودُ بالدُّبُر هنا: الأدبار؛ أي: يوَلّي كلُّ أحدٍ منهم دُبُرَهُ، فينصرفوا مُنهزِمين[1].

4) ﴿أَدْهَىٰ﴾: أصْلُ (دهي) إصابةُ الشَّيءِ بالشَّيءِ بما لا يَسُرُّ. يُقالُ ما دَهاهُ؛ أي: ما أصابَهُ. لا يُقالُ ذَلِكَ إلّا فيما يَسوءُ. ودَواهي الدَّهرِ: ما أصابَ الإنسانَ مِن عظائِمِ نوَبِهِ[2]. والدّاهيةُ أمرٌ فظيعٌ لا يُهتدَى لدوائِه[3]. وأدْهى: اسمُ تَفضيلٍ من دَهاهُ إذا أصابَهُ بداهيَةٍ، وهي الرَّزيَّةُ العُظمى تَنزِلُ بالمَرءِ[4]، والمرادُ هنا: السّاعةُ أشدُّ إصابَةً بداهيةِ الخُلودِ في النّارِ مِن داهيةِ عَذابِ الدُّنيا بالقَتلِ والأسرِ[5].

5) ﴿وَأَمَرُّ﴾: أصل (مرّ) يدلُّ على خِلافِ الحَلاوَةِ والطّيب. ومنه قولهم: أمَرَّ الشَّيءُ يُمِرُّ ومَرَّ، إذا صار مُرًّا. ولَقيتُ منه الأمرَّين؛ أي: شَدائدَ غيرَ طَيِّبَة. والأمَرّان: الهمُّ والمرَضُ[6]، والمراد هنا: أشَدُّ مَرارةً ومَذاقًا من عذاب الدُّنيا، واستُعيرَتِ المَرارَةُ للإحساسِ بالمَكروه[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـــوةُ آل فِـــرعـــونَ، وغـرورُ قُريشٍ، يـجـتـمـعـان في إنكارِ يومٍ لا مردَّ له

تُذكِّرُ الآياتُ الكريمةُ بما نَزَلَ بآلِ فِرعونَ حين جاءَتهم النُّذُر على لسانِ موسى وهارونَ، فكذَّبوا بالآيات الّتي أرسلَها اللّهُ، وهي تسعُ آياتٍ مِن أوَّلِها العصا إلى انفلاقِ البحرِ، فأصرّوا على الكُفر والظُّلم، فكان جزاؤُهُم أن أخذَهُمُ اللّهُ أخذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، فأغرَقَهُم أجمعين، ثمَّ توبِّخُ الآياتِ مُشرِكي قُريشٍ، وتُخاطِبُهم: أكُفّارُكُم يا قُريشُ خيرٌ مِن أولئك الّذين أهلكْناهُمْ مِن قَبلُ؟ أم أنَّ لكم براءةً مَكتوبةً في الكُتُب تُنجيكُم مِنَ العذاب؟ لا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 213.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دهي).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 168.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 221.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 214.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرّ).
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 214.

هذا ولا ذاك، بل أنتم مُمهَلون، فإمّا التَّوبةُ وإمّا الهلاكُ، وقد كانوا يقولون مُتفاخِرينَ بقوَّتِهم وكَثرتِهم: نحنُ جماعةٌ لا تُهزَمُ، فجاءَ الرَّدُّ الصّارِمُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وقد تحقَّقَ ذلك في بدرٍ حين هُزِموا، وولَّوا هارِبين، وتُذكِّرُهُم أنَّ العذابَ الحقيقيَّ ما زال أمامَهم: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾؛ أي: أنَّ العَذابَ الأعظمَ يَنتظِرُهم في الآخرة، فإنَّ عذابَ الدُّنيا إلى جانبِه هيِّنٌ، والسّاعة داهيةٌ كُبرى، وبلاءٌ شديدٌ، وعذابُها أمرٌّ من كلِّ ما ذاقوه في هذه الحياة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تصدير القصَّة بالمؤكِّدات:

التّوكيدُ القرآنيُّ يشدُّ الانتباهَ حين تكون الجريمةُ أفظعَ وأوضحَ

جاء قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ مُصدَّرًا بـ(اللّام) و(قد)، وهُما أداتا توكيد، ومعَهُما القسم المُقدَّر؛ أي: (واللّه لقد جاء آلَ فِرعونَ النُّذُر)؛ وذلك لإبراز شدَّة العناية بهذا المَقطَع مِنَ القَصص، وتمييزه عن غيره من حيث خطورتُهُ ووقعُهُ. لأنَّ آلَ فِرعونَ، بخلافِ الأقوام الأخرى، عايَنوا آياتٍ عظيمةً مُتتابِعةً: الطّوفان، والجَراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم، وانفلاق البحر، والعصا، واليد البيضاء... فهي أعظمُ آياتٍ جاءَت لقوم مُجتمِعةً، كما قال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [النّازعات: 20]، ولأنَّ عقوبتَهُم كانَت بالهلاك الغامِرِ والذُّلِّ المَهين، فقد أُهلِكوا غَرقًا، ثمَّ أُدخِلوا النّارَ ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: 46]، فهُم من أشدِّ مَن أخذَ اللّهُ كما في قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٖ﴾؛ ولأنَّ موسى ﷺ جاءَهُم بعدَ غَيبةٍ، وجاءَهُم مُباشرةً برسالةٍ صريحةٍ، وأيَّدَها بمُعجِزاتٍ عمليَّةٍ مَشهودةٍ، فصارَ مَجيءُ النُّذُر إليهم أصرحَ وأوضحَ مِن أن يُكذَّبَ به، ومع ذلك وقَعَ منهُم أعظمُ العِناد[2].

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 217، 218، 219.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 173، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.

توجيهُ الاختِلافِ في توكيد مَطلِع القصَّة دون أخَواتِها:

الوعيدُ باقتراب هزيمةِ سادةِ قُريشٍ بما يُشابِهُ هزيمة آلِ فِرعونَ

جاء مَطلعُ الحديث عن آلِ فِرعونَ مُؤكَّدًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، بخلاف بقيَّة القَصص الّتي بدأت بدون توكيدٍ، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: 9]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 18]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 23]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 33]، ونُكتة ذلك التَّنبيهُ على قُربِ آل فِرعونَ من مُشركي قُريشٍ زمانيًّا، وأنَّ العذابَ نزلَ في الآل، ومَنِ استقوَى بفِرعونَ وسارَ معه في حَربِه على موسى عليه السلام لاستئصالِهم، فكانت هناك مُشابَهةٌ ومُقارَبةٌ، فكأنَّ التَّوكيد لفتٌ للأنظار لِما سيقعُ على رؤوس المُشركين مِنَ القتل والتَّنكيل، ولاسيَّما السّادة الّذين هُمْ أشبَهُ بآلِ فِرعونَ، وممّا يُرشِّحُ الفَرقَ في التَّوكيد، وأنَّه مُرادٌ به العذابُ الخاصُّ بسادة المُشركين، ما وقَعَ لهم يومَ بدرٍ، والَّذي أشارَت إليه الآيةُ اللّاحقة، وهي قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45]، وهو عَينُ ما وقَعَ يوم بدر، فكانَت هزيمتُهُ مُقاربةً لهزيمة فِرعونَ، فغرَضُ التَّوكيد هو لفتُ الأنظار لِما سيكون في المُستقبل القريب.

توجيهُ اختلافِ التَّعبير بالإخبارِ عن مجيءِ النُّذُر دون تكذيبِ آلِ فِرعونَ:

الرِّسالةُ الإلهيَّةُ تَستهدِفُ المَسؤولَ الأوَّلَ عنِ الظُّلم قبل سائر النّاس

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ مَجيء النُّذُر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ بخلاف بقية القَصص، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ وذلك أنَّ دعوةَ موسى عليه السلام لم تكُن موجَّهةً إلى (شَعب القِبْط كافَّةً) بالتَّكليف، وإنَّما كانَت موجَّهةً إلى فِرعونَ والطَّبقةِ الحاكِمةِ المَسؤولينَ عن قهر بني إسرائيلَ، لهذا اختُصَّ آلُ فِرعونَ بالإنذار دون إطلاقِ الوصفِ على (قوم فِرعونَ) أو (القِبطِ). وهذا له مَدخَلٌ في التَّعبير بالمجيء دون التَّكذيب؛ لأنَّه

إذا كان مَناطُ التَّكذيب وصدُّ الرِّسالة من آلِ فِرعونَ ناسَبَ التَّمهيدَ بالإنذار: (جاء النُّذُر) ثمَّ الإخبار بعدَه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾؛ لأنَّ الغايةَ أوَّلًا هي إقامةُ الحُجَّة لا اتِّهامهم، وبيانُ مَسؤوليَّتِهم لا التَّعميم على الأمَّة، فالسّياقُ هنا أرادَ أن يُظهِرَ إقامةَ الحُجَّةِ أوَّلًا قبلَ ذِكْرِ ردِّها بالتَّكذيب؛ لكون التَّكذيبِ صادرًا من جهةٍ وطبقةٍ مَخصوصَةٍ لا مِنَ المَجموع العامِّ، بخلافِ القَصصِ السّابقةِ؛ فبدأها بذكر ﴿كَذَّبَتْ﴾ دون تمهيدٍ بالإنذار؛ لأنَّ قرارَ التَّكذيب كان جمعيًّا من عُموم الأمَّة، فكان التَّركيزُ ليس على الإبلاغ، بل على ردِّ الإبلاغ، إسراعًا في تسجيل الإدانةِ القاطِعةِ بالتَّكذيب؛ ليكونَ مُنطَلقًا لاستحقاق العقوبة، وهذا من دقَّة القرآن في عدلِهِ في التَّعبير، وإحكامِهِ في توزيعِ المَعاني بحسب السّياقِ والمُخاطَب[1].

نُكتة التَّعبير بالمَجيء دون الإرسال:

الإنـذارُ الصَّريحُ حُجَّةٌ بالِغةٌ لا عُذرَ بعدها

التَّعبيرُ بالمَجيء دون الإرسال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛ لأنَّ (أُرسل) تدلُّ على التَّكليف بالبلاغ، وهي أنسَبُ حين يُرادُ بيانُ وظيفة الرَّسول، و﴿جَآءَ﴾ تدلُّ على الوصول الفعليِّ والقُدومِ المَحسوس، وهي أنسَبُ حين يُرادُ تصويرُ المُقابَلة والمواجَهة. ومَجيءُ موسى ﷺ إلى فرعونَ ومَلئِه كان فِعليًّا وحِسّيًّا ومَلحوظًا، فموسى كان غائبًا عن مِصرَ، هاربًا إلى مَدينَ، ثمّ عادَ إليهم فجأةً بعد غيابٍ طويلٍ يحملُ رسالةً من ربِّه، فجاءَهم بالآياتِ وبالإنذارِ مُشافَهةً ومُعاينةً، فعبارة ﴿جَآءَ﴾ أدقُّ وأقربُ للتَّصوير الحسّيِّ الواقعيِّ، وهو أبلغُ في الإيذان باستحقاقٍ أوضَحِ للعقوبة؛ لأنَّ النُّذُرَ لم يكُنْ غائبًا أو عبرَ رسائلَ، بل (جاءَهم) بعينِهِ شخصًا وصوتًا وآيةً[2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 319.

فائدةُ ذِكْرِ ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ دون الاكتفاءِ بفِرعونَ:

تنبيهُ أعوان الظّالمين إلى وحدةِ المَصير الدُّنيويِّ والأُخرويِّ

ذَكَرَ القرآنُ ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ دونَ التَّصريح بذكر فِرعونَ وحدَهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ فيصيرُ ذِكرُ الجزءِ دالًّا على ذكر الكلِّ؛ لبيان مَسؤوليَّة مَن يُحيطُ بالظّالم، ويَنصرُهُ على المُؤمنين، وأنَّه لا ينفَكُّ عن مَصيره الدُّنيويِّ والأخرويِّ، ففيه تنبيهٌ لسادة قُريشٍ ومَن يَلوذُ بهم، ويُناصرُهُم على الحقِّ، بأنَّ مَصيرَهُم كمَصيرِهِم، فضلًا أنَّ فِرعونَ داخلٌ في الآل، بل هو أولَى النّاسِ بالذِّكر، فالاكتفاءُ بذكر (الآل) يُغني عنِ التَّصريح به؛ لأنَّ عِلْمَ السّامعِ يَستحضرُهُ تلقائيًّا باعتباره رأسَ الآل ومَصدرَ القَرار[1].

بلاغةُ الإسناد المَجازيِّ:

مدارُ الأمر على الرِّسالة لا الرَّسول المُنذِر

مفرد ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ الإنذار؛ أي: الإنذارات والرِّسالات، فيكونُ إسنادُ فعلِ المَجيء إلى النُّذُر (الإنذارات) مَجازًا عقليًّا بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ الرُّسلَ جاؤوا بسبب النُّذُر، فلو لم يَحملوا لأقوامِهم النُّذُرَ لَما جاؤوا، ومآلُ القولَين يصُبُّ في الغايةِ والمَآلِ، ونكتةُ المَجازِ تهويلُ الإنذارِ، حتَّى كأنَّه هو الّذي جاءَهم مواجَهةً.

فائدة استعمال مُفردة ﴿ءَالَ﴾ بدل (قوم):

موالاةُ الظّالمين تُدخِلُ المَوالي في حُكمِهم ومَصيرِهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالآل بدلَ القوم، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛ لأنَّ (القوم) أعمُّ مِنَ (الآل)؛ فالقومُ: كلُّ مَن يَقومُ الرَّئيسُ على أمرِهم، فيقومونَ هم بأمرِهِ، وقومُ فِرعونَ كانوا تحتَ قَهرِهِ بحيث لا يُخالِفونَه في قليلٍ ولا كثيرٍ؛ فالقومُ يشمَلُ كلَّ مَن يَدخُلُ تحتَ سُلطة فِرعونَ، سواءٌ من خاصَّتِه أو من عامَّة النّاس. أمّا (الآل) فهُم الخاصَّةُ والمُقرَّبونَ من فِرعونَ؛ أي: النُّخبةُ الدّاعِمةُ والمُشارِكةُ له في القَرار والتَّمكين والاستكبار؛ كهامانَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 173.

وقارونَ والملأِ، فهُمُ الّذين شاركوه في الظُّلم، والصَّدِّ عن سبيل الله، والطُّغيانَ، وتكذيبَ النُّذُر عن وعيٍ واختيارٍ، وهُمُ المَقصودونَ هنا في الآية[1]، وذُكِرَ الآلُ دونَ القومِ للتَّنبيه على نزولِ العذابِ عليهم، فقد شَمَلَ العذابُ آلَ فِرعونَ جميعًا.

نُكتة تقديم ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ على الفاعل:

قُدِّمَ ذِكرُ المَفعولِ على الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ لتوجيه انتباهِ المُخاطَبين على أهمّيَّة الحَدَث، فإنَّ شأنَ التَّنبيهِ في الخطاب شأنٌ تحذيريٌّ يَدفَعُ المَصائِبَ إنْ تفاعَلَ معها المُخاطَب بعقلِهِ وقلبِهِ، وشأنٌ توبيخيٌّ إنْ أهمَلَ النَّظرَ فيها.

التَّحذيرُ والتَّنبيهُ من مُقتضَيات الرَّحمة الرَّبّانيَّة

دلالة جمع ﴿ٱلنُّذُرُ﴾:

النُّذُر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، جمع (النَّذير)، فهو اسمُ مَصدرٍ بمعنى (الإنذار) من (أنذَرَ)؛ أي: أنَّ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ تعني الإنذاراتِ المُتكرِّرةَ، فهو جَمعٌ باعتبار التَّعدُّد في الإنذارات، لا في المُنذِرين؛ لأنَّ المُنذِرَ هنا واحدٌ، وهو موسى ﷺ. ووجْهُ الجَمع: الدَّلالةُ على وفرة الإنذاراتِ وكَثرة سُبُلِ التَّذكيرِ، وهو من باب تعدُّدِ الأسباب وتنوُّعِ وسائلِ الدَّعوةِ والتَّذكير، ممّا يجعَلُ عاقبةَ المُكذِّبينَ أشدَّ وأخزَى؛ لأنَّهم ما كذَّبوا بإنذارٍ واحدٍ، بل بأمواجٍ مِنَ النُّذُر المُتلاحِقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: 56][2].

تعـدُّدُ وسائل الإنـذارِ يَقطَعُ الأعـذارَ، ويزيدُ مَسـؤوليـةَ المُكذِّبين

مَوقِع جملة ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ ممّا قبلَها:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ يُفهَمُ مِنَ السّياق، فبعدَ أن قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ قد يَتبادَرُ إلى ذهن السّامِع: ماذا كان

السّياقُ القرآنيُّ يُبقي المُتلقّي حاضِرَ الذِّهنِ في كلِّ مَقطَعٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 319، وابن عادل، اللُّباب: 18/ 274.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.

مَوقِفُهم من هذه النُّذُر؟ وماذا فعلوا بها؟ وكيف كانَت عاقبتُهم؟ فجاء الجوابُ في الاستئناف ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، وفائدةُ الاستئناف البيانيِّ زيادةُ تشويقِ المُتلقّي وانتقالُهُ الذِّهنيُّ مع السّياق، وإبرازُ أثرِ النُّذُر، وما يترتَّبُ على التَّكذيب بها.

ويَحتمِلُ أن يكونَ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا﴾ بدلَ اشتمالٍ من جملة ﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛ لأنَّ مجيءَ النُّذُر إليهم مُلابِسٌ للآيات، وظُهورُ الآياتِ مُقارِنٌ لتكذيبِهم بها، فمَجيءُ النُّذُر مُشتَمِلٌ على التَّكذيب؛ لأنَّه مُقارِنُ مُقارِنِه[1]، فيكونُ من باب كمال الاتِّصال، والأوَّلُ من باب شِبهِ كمالِ الاتِّصال، والتَّوجيهان صحيحا المعنى.

بلاغةُ التَّغليب في الحُكم على الجميع:

الـحُـكـمُ على الجماعةِ لا يُنكِرُ وجودَ استثناءٍ، لـكـنَّـه يُـسـجِّـلُ المَوقِفَ العامَّ

إسنادُ التَّكذيب إلى آلِ فِرعونَ مع وجودِ مَن آمنَ منهم في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا﴾؛ لأنَّ الإسنادَ إلى الجمعِ ظاهرًا يدلُّ على عُمومِ الحال، وإنْ لم يكُنْ المرادُ جميعَ الأفراد حقيقةً[2]. والسِّرُّ البلاغيُّ في هذا الإسناد المَجازيِّ هو إسنادُ الفعل للأغلب الغالِب، فالغالِبُ على آلِ فِرعونَ هو التَّكذيبُ، فحُكِمَ على الجَمع بذلك، وإنْ وجِدَ فيهم مَن آمنَ كالرَّجُل المُؤمِن في سورة غافر، وآسيةَ بنتِ مُزاحِم، زوجةِ فِرعونَ. وذِكرُ الرَّجلِ المُؤمنِ وامرأةِ فِرعونَ في مَوضِعٍ آخرَ هو بيانُ استثناءٍ خارجٍ عنِ القاعِدة، لا مُخصِّصٌ لها في المَقام البيانيِّ هنا، والمَقامُ مَقامُ تهويلٍ للعقوبة، وبيانُ العاقبة لِمَن استكبرَ عنِ الحقِّ، فالخِطابُ موجَّهٌ لِمَن يتَّبعُ سيرةَ التَّكذيب، لا لِمَن نجا مِنَ المَصير.

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا﴾ هي باءُ التَّعدية،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.

ومعنى الإلصاقِ مُلازِمٌ لها، وهذا أبلغُ ممّا لو قيل: (كذَّبوا آياتِنا)، إذ يُشعِرُ حرفُ الإلصاق بالمُبالغة في الجُحود.

نُكتةُ جمعِ الآياتِ وإضافتِها إلى ضميرِ العَظمة:

تكذيبُ الآياتِ الإلهيَّةِ علَّةُ الأخذِ الشَّديد عند صاحبِ العقلِ الرَّشيد

جُمِعَ لفظُ الآياتِ ثمَّ أُضيفَ إلى ضمير العَظمةِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾، فالجمعُ لإحاطة كلِّ ما جاءَهُم من دلائلَ عقليَّةٍ وحسّيَّةٍ وشرعيَّةٍ، فلا يبقى عُذرٌ ولا مَهربٌ، وإضافتُها إلى ضمير العظمة (نا) يُكسِبُها شرفَ المكانة، وعظيمَ الشَّأن، فهي ليسَت مُجرَّدَ خوارقَ مَعزولةٍ، بل هي مَنسوبةٌ إلى اللّٰه سبحانه؛ فتكذيبُها اعتداءٌ على مَصدَرِها الإلهيِّ لا على الرَّسول فحسب.

دلالة التَّعبير بلفظ العُموم (كلّ):

رَفضُ كلِّ آيةٍ برهانٌ على العِنادِ لا الجهل

استعملَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ العموم (كلّ) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾؛ ليَدُلَّ على الاستيعاب التّامِّ والتَّعميم الكاملِ للآيات الّتي كُذِّبَ بها، فلم يُؤمنوا بأيِّ آيةٍ، لا صُغرى ولا كُبرى، لا قَديمة ولا جديدة، بل كذَّبوا بالجميع. وتكذيبُهُم بآية انفلاقِ البحرِ خاصَّةً أبلغُ في العَمى والعناد؛ لأنَّها آيةٌ عَينيَّةٌ فُجائيَّةٌ حسّيَّةٌ، لا يُعذَرُ معها بجَحدٍ أو توهُّم، ومع ذلك لم يتَّعظوا بها، بل دخلوها مُكذِّبين، فأُغرِقوا فيها مُكذَّبين[1].

بلاغة الكناية في لفظ العُموم:

رفضُ الآياتِ كلِّها كنايةٌ عنِ المُبالغة في التَّكذيب ومُبالغةِ الرُّسل في التَّبليغ

النَّصُّ على العُموم بلفظ (كلّ) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ كنايةٌ عن توبيخِهم والتَّسجيل عليهم بالحُجَّةِ البالغة في استحقاقِهِمُ العذابَ؛ لأنَّ تكذيبَهُم ولو بآيةٍ واحدة يكفي في الأخذِ المَذكور، فكيف بالآيات كلِّها[2]، فهُم بالَغوا في الكُفر والتَّكذيب، كما أنَّ لفظَ ﴿كُلِّهَا﴾ كنايةٌ كذلك عن مُبالغةِ الرَّسول في التَّبليغ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 209.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 334.

والصَّبرِ على المُكذِّبين؛ ففيه إيماءٌ إلى تبرِئة الرُّسل من أيِّ قُصورٍ في البلاغ والإنذار.

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ للتَّفريع على التَّكذيب في قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والتَّفريعُ يُفيدُ التَّسبُّبَ؛ أي: تسبَّبَ عن تكذيبهم أخْذُهم وإهلاكُهم[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الأخذ:

عقابُ الله قبْضٌ قاهرٌ لا مَهرِبَ منه لِمَن أعرَضَ وكَذَّب

استُعيرَ لفظُ الأخذِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ لِمَعنى العقاب والإهلاك والانتقام[2]؛ لأنَّ الأخذَ في أصلِه هو التَّناولُ باليَد، فنُقِلَ إلى معنى المَجاز وهو الاستيلاءُ عليهم بالعذاب، فشُبِّه الإهلاكُ والتَّعذيبُ بالأخذِ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ونكتةُ ذلك بيانُ الاقتدارِ الإلهيِّ بأنَّه أخذٌ يَسيرٌ عليه سبحانه، فكما أخَذَهم فهو يَأخُذُ غيرَهُم.

فائدةُ المَفعولِ المُطلَق:

تأكيدُ نوعِ العُقوبة يَزيدُ من رَهبتِها في النُّفوس

أفادَ انتِصابُ قوله تعالى: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ على المَفعوليَّةِ التَّأكيدَ على نوعِ الأخذِ، فالمَفعولُ المُطلَقُ يُعزِّزُ من قوَّة الفِعل، ويدلُّ على عَظمةِ العذاب الّذي لا يُقهَرُ ولا يَفِرُّ منه أحدٌ، وهذا يكشِفُ مُستوى القَسوة في العذاب الّذي لاقاهُ فِرعونُ وقومُهُ بعد تكذيبِهم المُتواصِل للآيات[3].

بلاغةُ إضافةِ المَصدرِ إلى فاعِله:

البطشُ بالباطِشِ عدلٌ من الرَّحيمِ بعبادِه المَساكين

إضافةُ ﴿أَخْذَ﴾ إلى ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ بمعنى (مِن)؛ أي: أخذًا آتيًا مِن عزيزٍ مُقتَدِرٍ، والإضافةُ من إضافة المَصدر إلى فاعِله، فالآخِذُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 91.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 209.

عزيزٌ مُقتدِرٌ، وفيه إيماءٌ لِفرعونَ ومُناسبةٌ لِمَقامِه، فكما كان يَبطِشُ بالنّاس كعادة الملوك الجبابرة، الّذين يَخطفون النّاسَ، ويَبطِشون بهم بقوَّةٍ لا يُمكِنُ مُقاومتُها؛ فإنَّ الله تعالى قد أخَذَ فِرعونَ وآلَهُ بالقوَّة نفسِها الّتي لا مَرَدَّ لها.

تعيينُ مَرجِع الضَّمير ودلالتُه:

يرجع الضَّميرُ إلى آلِ فِرعونَ تحقيقًا، وإلى الأقوامِ السّابقين إيماءً

الضَّمائرُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ﴾ تحتمِلُ أن تَرجِعَ لآخِرِ مَذكورٍ، وهُم آلُ فِرعونَ، وتَحتمِلُ عَودَها إلى جميع الأقوام المُتقدِّم ذِكرُها[1] بطريقِ الإيماء، فتكون خاتمةً للقَصص الواردة في السّورة، وتلخيصًا للجزاءِ العامِّ لِمَن كذَّبَ الرُّسلَ، خصوصًا بعد استعراض قَصصِ الماضين (قوم نوح، عاد، ثمود، لوط، فِرعون)، فكان ختامُ القَصص بجملةٍ جامعةٍ مانعةٍ: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لتكونَ ميزانًا يوزَنُ به كلُّ طاغيةٍ ومُكذِّبٍ يأتي بعدَهُم.

والقولُ بعودة الضَّمير إلى أقرب مَذكورٍ بناءً على القاعدة النَّحويَّةِ المَشهورةِ، والقولُ بعودة الضَّمير إلى جميع المُتقدِّم ذِكرُهُ بناءً على العُموم السّياقيِّ، والمَعنيان مُتآيلان، ورجوعُ الضَّميرِ إلى أقرب مَذكورٍ أظهَرُ في الكلام الجُزئيِّ، وإلى جميعِ المُتقدِّم ذِكرُهُ أظهَرُ في المَقصِد الكلّيِّ.

نُكتةُ الجَمع بين صفتَي ﴿عَزِيزٍ﴾ و﴿مُّقْتَدِرٍ﴾:

قوَّةُ الله تُرهِبُ الطّغاةَ وتُطمئِنُ أهلَ الإيمان

الجمعُ بين صِفتي عزيزٍ ومُقتدِرٍ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لِلجمع بين التّهديد والتَّطمين. ففيهما تهديدٌ لِمَن يَرى نفسَهُ قويًّا في الأرض، وتطمينٌ للمؤمنين أنَّ قوَّةَ الله لا تُجارَى، ولا يُفلِتُ منها مُتجبِّرٌ. فالعزيزُ هو الّذي لا يُغالَبُ، ولا يُهزَمُ. والمُقتدِرُ: هو الّذي يُحسِنُ إنزالَ العِقاب بقُدرةٍ دقيقةٍ، ويُنزِلُهُ على وجه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 220.

الحِكمةِ. فجَمَعَ هنا بين وصفَين مُتباينَين في اللَّفظ، ومُتَّحِدَين في تقرير الغَلبة لِلمُؤمن، وإمضائِها على المُستكبِر.

غرَضُ تنكيرِ الاسمَين الجليلَين:

نُكِّرَ الاسمان الجليلان ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لإفادة التَّفخيم؛ أي: أخذًا صادرًا عن عِزّةٍ لا تُدافَع، واقتدارٍ لا يُغالَبُ، كأنَّهما عِزَّةٌ واقتدارٌ لا نظيرَ لهما.

نُكتة تقديمِ صفةِ العِزَّة:

أخـذُ اللـهِ لا يُقاوَمُ؛ لِعزَّته، ولا يُفلِتُ منه أحدٌ؛ لاقتدارِه

قُدِّمَ ذِكرُ صفة العزَّة على الاقتدار في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لأنَّ الأخذَ ناشئٌ أوَّلًا من قهرٍ وغَلبةٍ لا تُدافَعُ، ثمَّ جاء الاقتدارُ مُكمِّلًا ليُبيِّنَ أنَّ هذا القهرَ مُقترِنٌ بقُدرةٍ تامَّةٍ لا يُعجِزُها شيءٌ، فهو ترتيبٌ مَنطقيٌّ مِنَ القهر إلى التَّمكُّن. ولذا فُسِّر ﴿عَزِيزٍ﴾ بالّذي لا يُغلَبُ، و﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ بالّذي لا يُعجَز[1].

دلالةُ التَّعبير بصيغة (افتعل):

تجـلّي القُـدرةِ الإلهيَّة في صورةٍ فعليَّةٍ ظاهرةٍ

كلمة ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ اسم فاعل من (اقتَدَر) الخماسيِّ، على زِنة (افتَعَل)، وهو أبلغُ من (قادر) و(قدير)؛ لزيادة مَبناهُ الّتي تُؤذِن بزيادةِ مَعناه. وصياغتُه مِنَ (افتَعَل) تدلُّ على المُبالغة في الفعل، والتَّمكُّن منه، وإنفاذِه بقوَّةٍ وإحكام. ولم يقُل: (أخذَ عزيزٍ قديرٍ) بدلًا من ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لأنَّ (مُقتدِر) تدلُّ على إظهار الفعلِ وإيقاعِه في الخارج، وأمّا (قدير) فهي وإنْ كانَت صفةَ مُبالَغةٍ أو صفةً مُشبَّهةً، على زنة (فَعيل)، تدلُّ على تَمام القُدرة ودوامِها وثُبوتِها ذاتًا، إلّا أنَّها قد تُقالُ لِمَن له قُدرةٌ ذاتيَّةٌ، لكن قد لا يُباشِرُ الفعلَ، أو لا يُظهِرُ أثرَ قُدرته. فصيغةُ ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ "أبلغُ في هذا السّياق من (قدير)"[2]، رغم أنَّ (قديرًا)

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 334، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 209.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 334.

على صيغة المُبالغة؛ لأنَّ الغرضَ هنا ليس المُبالغةَ المُجرَّدةَ، بل إظهار القُدرة في صورةِ الفعل.

بلاغةُ المناسَبة بين مَنطوقِ الفاصلة ومَضمون القصَّة:

ادِّعـاءُ الـقـوَّةِ لا يُنجّي مِنَ الأخذ الإلهيِّ إذا غابَ الحقُّ

في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مقابلةٌ بين مَقام الادِّعاء ومَقام الحقيقة، ففرعون قال في كِبره: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات: 24]، وادَّعى العزَّةَ والاقتدارَ، فجاء الرَّدُّ الإلهيُّ في خاتمة العذاب ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: العزَّة والاقتدارُ الحقُّ للّه وحدَه، لا لِمَنِ اغترَّ بمُلكٍ أو سُلطةٍ، ففيه إفحامٌ له ولسائر مَن سارَ على دربِه، كما في ذلك إبرازٌ للمُناسبة النَّفسيَّة والسّياقيَّة بين ألفاظِ الخاتمة ومَطلعِ القصَّة، فآلُ فِرعونَ عُرِفوا بالتَّكذيب مع الاستكبار والسُّخرية، فناسبَ أن يكون أخذُهم بأقصَى درجات القوَّةِ الّتي لا مَردَّ لها، فجاءَ التَّعبيرُ بـ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ تجليةً للبَطش الإلهيِّ المُتناسِب مع مُستوى عِنادِهم وتكذيبِهم[1].

مَوقِع جملة ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ ممّا قبلَها:

الاتِّعاظُ بالماضين يُبيِّنُ المصيرَ الّذي يَنتظرُ المُكذِّبين

قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لحاصل ما قبلَه مِنَ القَصص الّتي مَرَّتْ، فهو فصلُ الخطاب الّذي يُسجِّلُهُ المُخاطِب على المُخاطَب، وغايتُهُ في ختام الكلام معه، فبَعدَ سَردِ قَصصِ المُكذِّبين من نوحٍ إلى آلِ فِرعونَ، قيلَ للمُخاطَبين على جهة النَّفي والإنكار وتقرير المُخاطَب: أأنتُم خيرٌ مِن هؤلاء إذْ كفَروا فعوقِبوا، وتكفُرون فتُفْلِتوا؟! تلك إذن قِسمةٌ ضيزى! ولأجل إبراز ذلك التَّسجيل كتقريرٍ مُستقِلٍّ وبيانٍ فاصِلٍ، فُصِلَتِ الجملةُ ولم تُعطَف[2].

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 289.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 209.

نكتةُ العُدولِ في الخطاب:

مِنَ التَّلميحِ إلى التَّصريحِ تتجلَّى شِدَّةُ الإنذار الإلهيّ

في قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ عدولٌ في أسلوب الكلام من كونه موجَّهًا للرَّسول ﷺ - في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: 6]، وما بعده يَدخلُ في مَضمونِ الخطاب - إلى خطابِ المُشركين؛ لينتقلَ عنِ التَّعريض بهم إلى التَّصريح؛ اعتناءً بمَقام الإنذار والإبلاغ[1]؛ لِمُباغتةِ القوم بعدَ سَرْدِ القَصص السّابق بقصد التَّوبيخ والتَّقريع، والتَّنبيه والتَّحذير والتَّهديد.

بلاغةُ الاستفهام ودلالتُه:

الإنكارُ بالنَّفي في سياق التَّفضيل أبلغُ في التَّوبيخ

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؛ للإنكار الوُقوعيِّ التَّحقيقيِّ، فلا يحتاجُ إلى إقرار المُخاطَب واعتقاده؛ لأنَّه حاصلٌ بالفعل، وفائدتُه: إثباتُ مُغالطة المُخاطَب ومُكابرته فيما لا يَحتاجُ إلى بَرهَنةٍ واستدلالٍ، فيكون هذا الاستفهامُ في معنى النَّفي؛ أي: لستُم خيرًا مِن هؤلاء الكَفرة، بل أنتم مُتساوون في استحقاق الجزاء؛ لِتساويكم في أصل الجناية والتَّكذيب[2]. وتقوَّى هذا الإنكارُ والنَّفيُ بإيراده في سياق المُقارنة، فقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ هو في الحقيقة إنكارٌ للمُفاضلة؛ فالمعنى: لستُم بخيرٍ منهم. وهذا الأسلوبُ أقوى مِن أن يُقال: (أنتُم شرٌّ منهم)؛ لأنَّ الإنكارَ بالنَّفي في سياق التَّفضيل أبلغُ في التَّوبيخ.

فنُّ تَجاهُلِ العارِف:

إظهارُ عدمِ العِلم في خطابِ المُكذِّب تَهكُّمٌ وتوبيخٌ

يحتمِلُ أن يكونَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ على حقيقته، فيُفهَمُ في ظاهر التَّركيب أنَّه طلبيٌّ يسأل عنِ الأفضليَّة، لكنَّه في السّياق ليس للسُّؤال الحقيقيِّ بل هو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 47، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 209.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 335.

توبيخيٌّ، مَسوقٌ سَوقَ المعلومِ مَساقَ غيرِه. وهذا من فنون البلاغة المَعروف باسم: (تجاهُل العارِف)؛ أي: توجيهُ السّائل المُقتضي في الظّاهر عدمَ العِلم بما هو في الحقيقة بغرَض التَّهكُّم والتَّعريض. أو ما يُسمّيه بعضُ البلاغيينَ بـ(سَوق المَعلوم مَساقَ المَجهول). فبهذا الأسلوب يُقلَبُ الاستفهامُ إلى تقريرٍ للتَّوبيخ والتَّقريع، كأنَّه قيل: هل تظنّون أنَّكُم خيرٌ من قوم نوحٍ أو عادٍ أو ثمودَ أو قوم لوطٍ، حتَّى تُستثنَوا مِنَ العذاب؟! في الحقيقة، لا فضلَ لكفّار مكَّةَ على كفّار الأمم السّالفة، بل إنَّ أسبابَ العذاب حاصِلةٌ عندَهُم أوفرَ وأوضَح؛ فقد بلغَتهُمُ الرِّسالةُ، وجاءَتهُم الآياتُ، وسَمِعوا القَصصَ والمَواعِظَ، ثمَّ كذَّبوا واستكبروا كما فعَلَ أولئك، أو أشدّ[1].

بَراعةُ إضافةِ اللَّفظ إلى ضميرِه:

الإضافة البيانيَّة تُميِّزُ صِنفًا خاصًّا في المُخاطَبين

ضمير الخطاب الجمعيّ في: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يَرجِعُ إلى أهل مكَّةَ، وهم أنفسُهُم الكفّار؛ فإضافةُ لفظ (كفّار) إلى ضميرهم إضافةٌ بيانيَّةٌ؛ لأنَّ المُضافَ صِنفٌ من جنسِ مَن أُضيفَ هو إليه، فهو على تقدير (مِن) البيانيَّة، والمعنى: الكفّارُ (منكم) خيرٌ مِنَ الكفّار السّالِفين؛ أي: أأنتُم الكفّارُ خيرٌ مِن أولئك الكفّار[2]، والإتيانُ بالوصف مُضافًا إلى ضميرهم ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ بدلًا مِنَ الاقتصار على (أأنتُم خيرٌ) فيه تعريضٌ وتقريعٌ أشدُّ؛ لأنَّهم لم يُخاطَبوا بضمير الذّات الجماعيِّ، بل وُصِفوا بوَصفهِم الّذي يُعيِّرُهم ويَكشِفُ جُرمَهم: (كفّاركم)، وفيه إيماءٌ إلى قيمةٍ هدائيَّةٍ، وهي تنزيلُ المُخاطَب مَنزلةَ غيرِ الكافر؛ لِتنزيهِه عن نجاسةِ الكُفر - الّذي هو واقِعٌ فيه - فيما يُفترَضُ أن يكون عليه من الإيمان.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 210.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 210.

بلاغةُ فنِّ التَّجريد:

تجريدُ المُشركين للكُفرِ يُؤكِّد أنَّهم كيانٌ مَوصومٌ لا صِلةَ له بالنَّجاة

يجوزُ أن يكونَ خطابُ المُشركين بوصف الكفر مع إضافته إلى ضميرهم من باب التَّجريد، وهو أسلوبٌ بديعيٌّ يُنزَّل فيه الشَّيءُ مَنزِلةً كأنَّ له شيئًا آخرَ من جنسه، ثمَّ يُضافُ إليه لِمبالغةٍ ما، كقول القائل: (لكَ في نفسكَ صاحبٌ يُعاتِبُك)؛ أي: تُجرِّد من نفسك صاحبًا خياليًّا يلومُك، والمقصودُ أنَّك أنت تلومُ نفسَكَ، كذلك قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ﴾ يمكن أن يُفهَمَ - على وجه التَّجريد - أنَّ الخطابَ جَرَّدَ مِنَ القوم صِنفًا خاصًّا سمّاهُ (كفّارًا)، ثمَّ أُضيفوا إليهم، فقال: (كفّاركم)، فصار المعنى: منكُم صِنفٌ مَخصوصٌ هو كفّارُكم، أفَهُمْ خيرٌ مِن أولئك الكفّار؟!.

وهذا أبلغُ في الذَّمِّ والتَّوبيخ؛ لأنَّ فيه إبرازَ الكفر كصفةٍ لازمةٍ تامَّةٍ فيهم، كأنَّها جنسيَّةٌ مُستقلَّةٌ، ويجعلهم كأنَّ كُفرًا قد تملَّكَهُم أو انبثقَ منهم، فصار كالصّاحب لهم، كأنَّ كُفرًا خالِصًا مُجرَّدًا قد أُخرِج منهم ثمَّ أُعيدَ إليهم بالإضافة[1].

دلالة صيغة التَّفضيل:

احتمال المُفاضلة وعدمها عائدٌ إلى تشخيصِ المعاني وربطِها بالمقاصِد

كلمةُ ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ﴾ اسمُ تفضيل، وأصله (أَخْيَرُ) بوزن اسم التَّفضيل، فحُذِفَت الهمزةُ لِكثرة الاستعمال[2]، وهي في هذا السّياق تَحتمِلُ الدَّلالةَ على التَّفضيل باعتبارين: **الأوَّل**: حيث كان الكلامُ استفهامًا جاز فيه مجيءُ لفظة التَّفضيل بين الكفّار المُخاطَبين والكفّار السّالِفين في الخيريَّة؛ لأنَّ المُستفهِمَ جائزٌ له أن يوقِفَ مُحاوِرَه على ما شاء؛ ليَرى هل يُجيبُهُ بالصَّواب أو بالخطأ[3]. **والثّاني**: أنَّه لمّا وقعَ التَّساوي بين الكافرين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 91.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 18/ 335.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 203.

الحاضِرين والكافرين الغابِرين، في أنَّهما فريقان مُنفصِلان، صحَّ وقوعُ التَّفضيل بينهما على هذا الأصل[1].

ويَحتمِلُ أن تكون ﴿خَيْرٌ﴾ مَنزوعَ المُفاضلةِ، فاسمُ التَّفضيل قد يُستعمَلُ لا لتفضيل شيءٍ على شيءٍ آخرَ مُعيَّنٍ، بل قد يُرادُ به مُجرَّد الزِّيادة في أصل الوصف. فيُراد باسم التَّفضيل تجاوُزُ صاحبِه وتباعُدُهُ عنِ الغير في الفعل، لا بمعنى تفضيلِه بالنِّسبة إليه بعد المُشاركة في أصل الفعل، بل بمعنى: أنَّ صاحبَه مُتباعِدٌ في أصل الفعل، مُتزايدٌ إلى كمالِه فيه على وجه الاختصار، فيحصُل كمالُ التَّفضيل[2]، فيكون المعنى هنا نفيُ أن يكونَ أحدُ الفريقين مُتمايزًا على الآخر في أصل الصِّفة؛ وهي الكُفرُ البَواح.

نوع ﴿مِّنْ﴾ ودلالتُها:

التَّفضيل يكون لِما بعد ﴿مِّنْ﴾

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ هي ﴿مِّنْ﴾ التَّفضيليَّة؛ لابتداء غاية التَّفضيل، فهي حرفٌ واصِلٌ بين المُفضَّل والمُفضَّل عليه؛ لإفادة المُقارنة والتَّرجيح بينهما، وغايةُ التَّفضيل هي ما بعدَ اسمِ التَّفضيل ﴿أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾.

دلالة التَّعبير باسمِ الإشارة البعيد:

اجتماعُ البُعدِ الزَّمانيِّ والمَعنويِّ بحسب السِّياق والمَقصودِ

التَّعبيرُ باسم الإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؛ لإشارته إلى البُعداءِ زمنًا ومَقامًا، فالمَقصود: المَذكورون من قوم نوحٍ إلى فِرعونَ ممَّن حقَّ عليهم العذابُ، وهؤلاء بُعَداءُ في المنزلةِ والتَّاريخ[3]، ويَحمِلُ استعمالُ اسم الإشارة للبعيد معنى البُعدِ المَعنويِّ المَجازيِّ، بالإضافة إلى البُعدِ الزَّمانيِّ الحقيقيِّ؛ فهُم بُعَداءُ عنِ الحقِّ، فشأنُهُم الإبعادُ عن مَواطِن الكرامة.

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 60، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 314.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 39، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 313.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 335.

مَوقِع جملة ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾:

توهُّمُ البَراءة يَكشِفُ الوجهَ القاتِلَ للأمانِ الكاذب

قوله: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ لا إضرابٌ إبطاليٌّ، فهو انتقالٌ من تعريضٍ بتوهُّم الأفضليَّة ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ﴾ إلى نفي دعوًى ثانيةٍ باطلةٍ، وهي: أنَّهم في أمانٍ مِنَ العذاب الإلهيِّ، وكأنَّ لهم صكَّ براءةٍ، فيكون هذا مِنَ التَّبكيتِ والسُّخرية من شُعورِهِم الزّائفِ بالأمان مِنَ العذاب[1].

غرضُ الاستفهام ودلالتُه:

نقضُ شُعور الأمان بإثباتِ زَيف الأوهام

في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعةٌ للإضراب الانتقاليِّ، بمعنى: (بل) وهمزة الاستفهام؛ أي: بل ألَكُم[2]؟ والجمعُ بين الاستفهام و﴿أَمۡ﴾ بعد استفهامٍ آخرَ فيه تعاقُبٌ لأساليب البيان في تحقيقِ غرَضِ التَّوبيخ، والاستفهامُ هنا: إنكاريٌّ يُنكِرُ عليهم هذا الشُّعورَ الكاذبَ، وتقريريٌّ يَقطَعُ بعَدَم وجودِ مثلِ هذا البراءة[3].

دلالةُ التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة:

وظيفةُ حرفِ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ ربطُ البراءة بالمَكان أو النِّطاق، كأنَّه قيل: هل لكم نصيبٌ للبراءة داخلَ الزُّبُر؟ لِتعيين المَكان الَّذي يُسألُ عنه.

فائدةُ تقييدِ البراءةِ بكَونِها ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾:

تأصيلُ المعاني العقديَّة أصلٌ في خِطابِ العقلِ الباحث عنِ النَّجاة

قُيِّدَتِ البراءةُ بكونها في الزُّبُر في قوله: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾، فلم يأتِ السُّؤالُ عن براءةٍ مُطلَقةٍ، بل عن براءةٍ مذكورةٍ في كُتُبٍ مُعتبَرةٍ؛ أي: في وحيٍ إلهيٍّ مُنزَّلٍ، لا مُجرَّد مَزاعِمَ أو أمانيّ. وهذا فيه ردٌّ على مَن يظنُّ أنَّ نجاتَه قائمةٌ على تقليدٍ أو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 91، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 210.

(2) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 173.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 140، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 211.

ادِّعاءٍ أو إرثٍ دينيٍّ بلا حجَّةٍ. ولو قال: (أم لكُم براءةٌ؟) لاحتملَ أن تكون مَزعومةً أو مَظنونةً، لكن قوله: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ قيدٌ مُهمٌّ يدلُّ على التَّوثيق والمَرجعيَّةِ، ويُبطِلُ الحُجَجَ المُعتمِدةَ على الأهواء، أو الرُّؤى الشَّخصيَّةِ، أو المَوروثاتِ المَشكوكِ فيها، مع التَّعريض بأنَّ البراءةَ مكتوبةٌ في الزُّبُر للَّذين آمنوا. وفي القيد تنبيهٌ إلى حال الكافر والمؤمن؛ فالكافرُ آمنٌ في الدُّنيا، مع أنَّه لا يَملِكُ براءةً. والمؤمنُ خائِفٌ في الدُّنيا، مع أنَّه يَملِكُ وعدًا بالنَّجاة[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلزُّبُرِ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلزُّبُرِ﴾ لحقيقة الجنس؛ أي: جنس الكُتُب السَّماويَّة، أو لِلعَهد؛ أي: ما سَبقَ لهم به عِلمٌ من هذه الكُتُب.

بلاغة فنِّ الاحتباك:

في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ بديعُ الاحتباك، ففي الطَّرف الأوَّل مِنَ التَّرديد ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ ذُكِرَتِ الخَيريَّة، ولم يُذكَرْ أنَّ أولئك ليسَت لهم براءةٌ. وفي الطَّرف الثّاني مِنَ التَّرديد ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ ذُكِرَتِ البراءةُ، ولم يُذكَر أنَّ أولئك ليسوا بخيرٍ منهم. وعليه فوجهُ الاحتباك إثباتُ الخَيريَّة في الشِّقِّ الأوَّل، فهي دليلٌ على حذفها في الثّاني، وإثباتُ البراءة في الشِّقِّ الثّاني، فهي دليلٌ على حذفها في الأوَّل؛ والمعنى: أكُفّارُكُم خيرٌ مِن أولئِكُم، وليس لكم براءةٌ في الزُّبُر؟ أم لكم براءةٌ في الزُّبُر، ولستُم بخيرٍ منهم؟[2].

الحذفُ البليغُ يُكثِّف المعنى ولا يُخِلُّ به

مَوقِع جملة ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ ممّا قبلها:

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ من تبكيتٍ إلى تبكيتٍ، فالآيةُ جاءَت بصيغة الإضراب: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ

الانتقال مِنَ التَّوبيخ إلى كشف الغرور العمليّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 320.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 130.

جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، والتَّقدير: (بل أيَقولون) على تأويل همزةٍ استفهاميَّةٍ بعد حرفِ الإضراب؛ أي: بل يقولون هذا القول - وليس لهُم أن يقولوه. و﴿أَمْ﴾ هنا مُنقطِعةٌ، تفيدُ الانتقالَ إلى نوعٍ جديدٍ مِنَ التَّوبيخ[1]. ويجوز أن تكونَ ﴿أَمْ﴾ هنا مُتَّصلةً لا تفيدُ إضرابًا ولا انقِطاعًا، بل تُفيد طلبَ تعيين أحدِ هذه الأمور في الوقوع، وهو ما رجَّحَه القونويُّ[2].

بلاغة الالتفات مِنَ الخطاب إلى الغَيبة:

الإعـــراضُ عـنِ المُخاطَب المُكذِّب توبيخٌ لِمقامه

كان الخطابُ موجَّهًا إلى أهل مكَّةَ في قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَكُم﴾ ثمَّ التفتَ السّياقُ إلى الحديث عنهم بصيغة الغَيبة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. وهذا الالتفاتُ فيه صرفٌ للوجه عنهم، كمَن أعرضَ عن مُحاورٍ لم يَعُد يُحتفَى بخِطابه. وفيه إشعارٌ بالإعراض عن مَقامهم وانحدارِ رُتبتِهم. كما فيه نقلُ قبيحِ قولِهم إلى الغير، ممّا يزيدُ في التَّوبيخ، كأنَّه يقول عنهم: ليسوا أهلًا أن يواجهوا، بل يُتحدَّثُ عنهُم لا إليهم[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المضارع:

الفعلُ المضارع في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ يدلُّ على الاستمراريَّة؛ أي: يقولون على الدَّوام مُتفاخِرين، فأفادَ شدَّةَ العِناد وقوَّةَ الفخر وبالِغَ الغرور.

فائدةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

تـأكـيـدُ ثـبـات الادِّعـاء الزّائف، وفَـضـحُ الـغـرور الجارف

التَّعبيرُ بمَقول القول جملةً اسميّةً مُستهَلَّةً بضمير جماعة المُتكلِّمين ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ يدلُّ على تأكيد الذّات والاعتداد بها، مع إظهار صفةِ الانتصار كحقيقةٍ مُفترَضَةٍ لديهم في مَوقِع الثُّبوت واليقين، وكأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ جاءَت لتُعزِّزَ غرورَهُم وادِّعاءَهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 336.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 336.

الزّائِفَ، وتجعلَ المبالغةَ في اعتدادِهم بالانتصار واضحةً للسّامِع، فتزيدَ من وضوحِ التّناقض بين ادِّعائهِم والواقع.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿جَمِيعٌ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ كلمة ﴿جَمِيعٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾؛ للجمع بين معنى الاجتماع على الباطل في حرب الرِّسالة، والاتِّفاقِ عليه دون تَفرُّقٍ.

بلاغةُ جِناس الاشتقاق:

الـجـنـاسُ الاشتقاقيُّ يُبرِزُ التَّناقُضَ بين غـرور المُكذِّبين وواقعِ الهزيمة

في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ بين ﴿جَمِيعٌ﴾ و﴿ٱلْجَمْعُ﴾، فاللَّفظان اشتُقّا مِنَ الجذر نفسه؛ فـ(جميع) صفة تدلُّ على اجتماعِ الأفراد[1]. و(الجمْع) مصدرٌ يدلُّ على الاجتماع، وقد سُمّي به الفاعِلون (الجماعة) [2]. والجناسُ هنا يربطُ بين ادِّعاء المُكذِّبين بالجمعيَّة الشّامِلة للانتصار ﴿جَمِيعٌ﴾، والواقع الّذي سيواجِهونه كمجموعةٍ مُتجمِعةٍ ﴿ٱلْجَمْعُ﴾، فناسبَ نقضَ ادِّعائهِم بكلمةٍ من جنسِ ما ادَّعَوه.

دلالةُ إفرادِ لفظِ ﴿مُّنتَصِرٌ﴾:

كـثرةُ الأنـصار لا تنفَعُ مَن خَذلَه الله

كان مُقتَضى الظّاهر - بناءً على المعنى - أن يُقال: (نحن جميعٌ مُنتصِرون)، باعتبار أنَّ ﴿نَحْنُ﴾ جماعة، و﴿جَمِيعٌ﴾ بمعنى: (مُجتمِعون)، فيُناسبُه الجمعُ في (مُنتصِرون). لكنَّ النَّظمَ جاء بإفراد ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ مُراعاةً للَّفظ والمعنى، فجاء الخبرُ ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ مُفردًا لِمُطابَقة لفظ ﴿جَمِيعٌ﴾، ولِبيان ما دلَّ عليه كلامُهُم مِن أنَّهم مُجتمِعون على كلمةِ رجلٍ واحدٍ، فكأنَّهم يقولون: نحن رجلٌ واحدٌ مُنتصِرٌ؛ ففيه تنبيهٌ على الإفراط والمبالغة في الاعتداد بالنَّفس، والاغترار بما سيُحقِّقونه من ظفرٍ.

(1) صافي، الجدول: 1/ 100.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جمع)، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 37.

مَوقِع جملة ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾ ممّا قبلها:

كـلُّ تـجـمُّـعٍ بـاطـلٍ مَـحـكـومٌ بـالـخُـذلان مهما بدا مُتماسِكًا

جملةُ ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾ استئنافيَّةٌ، وقعَت جوابًا على قولهم: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾، فأُجيب: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، ففيه ردٌّ وإبطالٌ لذلك، ولكونه جوابًا فُصِلَ، ولم يُعطَف[1].

دلالة السّين:

السّين في قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾؛ للتَّأكيد والتَّقريب، ولذلك لم يقُل: (سوف يهزم)؛ لاستبعاد التَّراخي وتحقيق التَّعجيل[2].

نُكتةُ بناء فعل ﴿سَيُهۡزَمُ﴾ للمفعولِ:

انـهـزامُ الجمعِ بأدنى سببٍ أمرٌ مَحتومٌ

بُنِيَ فعلُ ﴿سَيُهۡزَمُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُهُ؛ للدَّلالة على أنَّ انهزامَهُم حاصلٌ بأهوَنِ سببٍ وأيسَرِ طريق، كأنَّه لسُهولته يحصلُ من تلقاءِ نفسِه، وللتَّنبيه على أنَّه وعدٌ مَضمونٌ لا يَحتمِلُ خُلْفًا ولا إبطاءً ولا مُماطلةً أو عَنَتًا[3].

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡجَمۡعُ﴾:

(الـ) في لفظ ﴿ٱلۡجَمۡعُ﴾ للعهد الذِّكريِّ، والمعهودُ ما في قوله: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ﴾؛ أي: سيُهزَمُ الجمْعُ القائلُ بأنَّه مُنتصِرٌ، فـ(الـ) عِوَضٌ عن مُضافٍ إليه، وهو ضميرُهم[4].

دلالة الجمع في ﴿وَيُوَلُّونَ﴾:

فُـرقـةُ الأفـعـال هـاتـكـةٌ لـسـترِ وحدةِ الأقوال

أُفرِدَ الفعلُ والفاعلُ في قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾، وجاء التَّعبير في قوله: ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير الجمع؛ وذلك لبيان أنَّ الهزيمةَ ستُفرِّقهم، فهُم بعدَ أنِ اجتمعوا تنظيرًا، وأصبحوا يدًا واحدةً في دعواهم المُنبِئَةِ عن ضعفِ عقولِهم في فهْمِ حقائقِهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 213.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 131.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 336، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 213.

القائمة على باطلِ الاعتقادِ، وسوءِ الارتباطِ، جاءَتِ الهزيمةُ لهم جميعًا ففرَّقتهم، فبانَت فُرقتُهم بتولية الأدبار، كلٌّ منهم ولَّى الدُّبُر، فوقعوا في خِزْيِ الإنباء قبل أن يقعَ، وفضيحةِ الاستهتار بهَتكِ الأستار عمّا سيَقع.

دلالةُ إفرادِ لفظِ ﴿ٱلدُّبُرَ﴾:

أهـلُ الباطل اجتمَعوا على قَولٍ واحدٍ، وفي التَّولية كدُبُرٍ واحدٍ

أُفرِد لفظ ﴿ٱلدُّبُرَ﴾، فلم يقُل: (الأدبار)؛ لإرادة الجنس، بناءً على أنَّ (الـ) للجنس، فالمُرادُ الماهيةُ والحقيقةُ، سواء كانَت مُتحقِّقةً ضمن فردٍ أو أفرادٍ، والمراد هنا تحقُّقُها ضمن أفرادٍ كثيرة[1]. ويَحتمِلُ أن يكون في تأويل: (يولّي كلُّ واحدٍ منهم دُبُره) على حدِّ قولهم: (كسانا الأميرُ حُلَّةً)؛ أي: حُلَّةً لكلِّ واحد[2]، كما أنَّ واو الجمع تنوبُ عن تَكرار واو العطف، فقوله: ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ بمثابة: (يولّي هذا الدُّبُرَ، ويولّي ذاك، ويولّي الآخرُ)؛ أي: كلُّ واحدٍ يولّي دُبُرَهُ[3]، أو إفرادُهُ إشارةٌ إلى أنَّهم في التَّولية كنَفسٍ واحدةٍ، فلا يَتخلَّفُ أحدٌ عن الجمع، ولا يَثبُتُ أحدٌ للزَّحف؛ فهُم كانوا في التَّولية كدُبُرٍ واحدٍ[4]، كما كانوا في الجَمْع كنَفْسٍ واحدةٍ، وهذا من صنيعِ أهلِ الهَزائم بعد الانكشافِ في ميدانِ أهل العَزائم.

بلاغةُ الكناية وفائدتُها:

جملة ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ كنايةٌ عن صفةِ الفرار والهزيمة، وفائدةُ الكناية تقريبُ المَشهَد بطريقة حسّيَّة (إبداء الظَّهْر)؛ لتقريب صورة الهزيمة في الذِّهن.

بلاغةُ الإضراب ونوعُه:

عـذابُ الدُّنيا مِفتاحُ عذاب السّاعة

جملة ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ مِنَ الوعيد بعذاب

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 336.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.

الدُّنيا كما حلَّ بالأُمَمِ قبلَهُم إلى الوعيد بعذاب الآخرة[1]. وهذا الإضرابُ عطفٌ على مُقدَّرٍ مَحذوفٍ، كأنَّه قيل: ليس هذا تمامَ عُقوبتِهم أو عقابِهم الوحيد، بل ينتظرُهُم مَوعِدٌ مِنَ العذاب آخَرُ، هو مَوعِد السّاعة[2].

وعليه: فـ﴿بَلِ﴾ هنا للإضراب الانتقاليِّ الّذي يَعطِفُ غرَضًا على غرَض، فكِلتا الجملتين قبل ﴿بَلِ﴾ وبعدَها مُقَرَّرٌ وثابتٌ، فالإضرابُ انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ، ويصحُّ أن يكون الإضرابُ جوابًا عن سؤال مُقدَّر: أيكونُ انهزامُ جَمْعِهم هو غايةَ عذابهم؟ فأُجيبَ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾، فالجملةُ حينئذٍ استئنافٌ بيانيٌّ.

نُكتة اختصاص السّاعة بكونها مَوعِدَهم:

السّاعة مَوعِدٌ مَخصوصٌ بالعقاب لِمَن استهزأ بها وجَحَدَها

خصَّ النَّظمُ السّاعةَ بالذِّكرِ في كونِها مَوعِدَهُم في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾، مع أنَّها مَوعِدٌ للجميع مؤمنًا وكافرًا؛ لكون هذا من باب التَّخصيص بالتَّهديد، والبيانُ على سبيل الرَّدِّ والتَّفنيد، ويدلُّ عليه أمور: أنَّهم هم السّائلون عنِ العذاب تكذيبًا، لا إيمانًا، فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨﴾ [يونس: 48]، وقالوا: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: 16]، وأنَّهم أنكَروا البعثَ أصلًا، فكأنَّ السّاعةَ لا تعني عندَهم شيئًا، فجيء بها هنا لِتصدمَهم وتُقرِّرَها عليهم خِصّيصًا؛ أي: إنْ كنتُم تستبعِدونَ وقوعَها، فهي لكم أنتُم مَوعِدٌ لا مَحالةَ. ولذا فالخطابُ هنا للوعيد، لا للجزاء على الطّاعة، فالمؤمنون مَوعِدُهم الخيرُ، لا يُخاطَبون بصيغة وعيدٍ، بينما الكفّارُ مَوعِدُهم الانتقامُ، فوُجِّهَتِ السّاعةُ إليهم، وخُصِّصَتْ بهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 214.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.

مَوقِع جملة ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾:

عـذابُ السّاعة مُـؤَكَّـدٌ لا مَـفـرَّ منه، وهو أدهَى من كلِّ ما سلف

جملة ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ استئنافٌ بالوعيد الصَّريح، بعد الإلماح إليه في جملة الإضراب؛ والمعنى: بل السّاعةُ مَوعِدُهم، وذلك مَوعِدُ عذابٍ لا مَوعِدُ رحمة؛ لأنَّها ساعةُ فظاعةٍ عليهم ومَرارٍ. وتقديرُ المُضافات هاهنا سائِغٌ؛ والمعنى: بلِ السّاعةُ مَوعِدُهُم، وعذابُ السّاعةِ أدهى وأمرُّ. وحَذفُ المُضاف وإقامةُ المُضاف إليه مَقامَهُ مِنَ المَجازات الشّائِعة، ويكون لدفع الإطناب، وإبراز الفَظاعة كأنَّها هي ذاتُ السّاعة.

نُكتة إعادةِ اسم (السّاعة):

إعـــادةُ ذِكـــرِ السّاعةِ توكيدٌ لِهَولها وتهويلٌ لأمرِها

أُعيدَ اسمُ (السّاعة) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ﴾ دون أن يُؤتَى بضميرها، فلم يقُل: (بل السّاعة مَوعِدُهم وهي أدهى)؛ لقصدِ التَّهويل، ولتكونَ الجملةُ مُستقلَّةً بنفسها، فتجري مَجرَى المَثَل السّائر[1].

بلاغةُ حذفِ مُقارِنِ التَّفضيل:

تـــركُ بـيـان المَـفـضـولِ يـدلُّ على أن لا شيءَ يَـفـوقُ عـذابَ السّاعة

حُذِفَ مُقارِنُ التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، فلم يُعيَّن أدهى وأمرُّ من أيِّ شيءٍ؟ وتوجيه الحذف أنّه لتوسيع دائرةِ الهَولِ، فلو قيل: (أدهى من عذابهم)؛ لقُيِّدَ الهَولُ، لكن حين يُترك، فالمعنى: لا شيءَ أشدُّ منها، بل هي أدهَى من كلِّ الدَّواهي والأهوال، ولبلوغ الغاية؛ أي: أدهَى الدَّواهي، وأمرُّ المَرارات، فلا داهيَةَ تُماثلها. وهذا من أقوى صيغ التَّفضيل، إذا حُذف طرفُ التَّفضيل هنا يُقْصَدُ به الوصولُ إلى ذروة المعنى، والوجهان لا يتنافيان، بل يُمكن الجمعُ بينهما، فهي ﴿أَدۡهَىٰ﴾ من كلِّ عذابٍ سلفَ في الدُّنيا. و﴿أَدۡهَىٰ﴾ على إطلاق التَّفضيل؛ أي: أنَّها غايةُ ما تتصوَّرُهُ النَّفسُ مِنَ الدَّواهي والشَّدائد[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 214.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿أَمَرُّ﴾:

السّاعة تُذيب ظاهرَهم بالرَّزايا، وتَكسِر باطنَهم بالمَرارة

(المَرارة) في الأصل: طَعمٌ لاذعٌ غيرُ مَحبوب، وهذا معنًى حسّيٌّ مادّيٌّ، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ استُعملَتِ الكلمةُ في غير مَعناها الأصليِّ، فلا حديثَ عن طعمٍ يُذاقُ، بل عن عذابٍ نفسيٍّ وهَولٍ مَعنويٍّ. فاستُعيرَتِ المَرارةُ للإحساس بالمَكروه، فالمَرارةُ هنا ترمزُ إلى ثِقل وقع المُصيبة على النَّفس، وصعوبةِ احتمالها، فهي مرارةٌ وجدانيَّةٌ لا طَعميَّةٌ. وهذا من تشبيه المَعقول بالمَحسوس؛ لتقريبِهِ إلى الذِّهن، فوُصِفت السّاعةُ بأنَّها (أمَرُّ) تشبيهًا لحالِها في شدَّتها على النَّفس، بما يُعرَفُ من شدَّة (المَرارة) في الطَّعْم، فكان هذا من استعارة المَحسوس (المَرارة الذَّوقيَّة) للمَعقول (الكرب النَّفسيّ)؛ لإبراز فظاعةِ السّاعة عليهم، وصُعوبةِ احتمالها، وقُبحِ أثرِها في الوجدان. وهذه الاستعارةُ تمثيليَّةٌ؛ لأنَّ الآيةَ لا تشبِّهُ شيئًا مُفردًا بشيءٍ مُفرَدٍ، بل تُصوِّرُ حالَ السّاعةِ في شِدَّتها وهَولِها، بصورةِ مَرارةِ الطَّعمِ الشَّديدةِ، وهذا تمثيلٌ لحالةٍ نفسيَّةٍ لا تُرى، بصورةٍ حسّيَّةٍ مألوفةٍ[1].

نُكتةُ تقديم ﴿أَدۡهَىٰ﴾ على ﴿أَمَرُّ﴾:

شَدُّ الانتباه مِنَ الإدراك الظّاهر إلى الإحساسِ الباطنِ في جَوهَر النَّفس

التَّقديمُ بين الصِّفتين ﴿أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ في سياق قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ له نكتةٌ معنويَّةٌ بالِغةٌ، وهو تحقيقُ التَّصاعُدِ المَعنويِّ المُتدرِّجِ مِنَ الأدنى إلى الأعلى. فتقديم﴿أَدۡهَىٰ﴾ لدلالتها على الهَول الظّاهر أوَّلًا؛ أي: ما يلمسُهُ النّاسُ من أثر السّاعة ودهشتهم بهَولِها. وتأخيرُ (أمرّ) لارتباطِها بالمَرارة الباطنة؛ أي: الإحساس الدّاخليّ بالعذاب وذوقِه النَّفسيِّ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 221، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 214.

وعليه، فالتَّقديم والتَّأخير هنا يُحقِّقان تصاعُدًا في التَّأثير مِنَ الخارج إلى الدّاخل، ومِنَ الظّاهر إلى الباطنِ؛ ليكتملَ تصوُّرُ العذاب بكلِّ أبعاده، ولا يَخفى ما في تأخير (أمرّ) من مُراعاة الفاصلة، وصيانتها ألّا تنخرِمَ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"